

## الحجر العنقودي

سميح القاسم

لا أستطيع الجزم بأن شهداء الانتفاضة سيقرأون ملاحظاتي هذه، التي أستعير دمهم حبراً لها، آملاً أن أتمكن ذات يوم مما تبقى لي في الأيام، من إعارتهم دمي ليدونوا ملاحظات عابرة على حياتهم الأبدية، هناك، حيث هم أحياء عند ربهم يرزقون.  
ولا أدعي اليقين بأن الشهداء القدامى أتيح لهم أن يقرأوا قصص الآباء والأجداد الذين قُيِّضت لهم قدرة الكتابة بمثل ما قُيِّضت لهم إمكانية الحياة.. ورغم ذلك، لا أفقد الأمل في أن يقرأ الشهداء كلمات أسميها وصية لمن لم يستشهد.

قبل حين، فاجأني أحدهم بسؤال استفزازي: من هو الشاعر؟ ولم أستردّ توازني إزاء عسف السؤال إلا بعد تورطي بإجابة أستطيع الآن نعتها بالهستيرية. قلت: الشاعر هو إنسان يصدق كل شيء في النصف الأول من عمره، أما في النصف الثاني من هذا العمر، فإنه لا يصدق شيئاً!  
ما كان عليّ أن أوظف نفسي في مثل هذه الإجابة الساخطة، فهذا هي انتفاضة شعبي تقدم صدقها الواضح كنارها ودمها في النصف الثاني من العمر، فهل أحجم عن تصديقها؟  
لا.. بل أصدق الانتفاضة بمثل ما أصدق البرق والرعد والبركان، وأصدقها بمثل ما أصدق وجعي المزمّن. ولأنني أصدق الانتفاضة، فإنني أخاف عليها من زمن يتقدم فيه الشك على اليقين، وتحتاط فيه الحيطة ويحذر الحذر.  
ثمة من يقول: إن الانتفاضة تحرك سياسي في مواجهة الاحتلال، وينبغي توظيفها في الصراع السياسي على مستقبل الشعب والوطن..

لا بأس.. لكن هذا الشيء من الصحيح وليس الصحيح كله، فحصر الانتفاضة في الخانة السياسية، رافعةً للعملية التفاوضية، يعني أن ننزع قلبها ونزرعه في جسد موشك على التآكل.. وقد يعني أن نغرس أشجار الزيتون، لا لشيء سوى الاستفادة من جذوعها وفروعها لصناعة التحف التذكارية السياحية، التي يحملها الحجاج الأوروبيون إلى بلادهم بعد زيارة الأراضي المقدسة.. لا.. ليس هذا هو الهدف الأساسي من غرس شجرة الزيتون. وليس الهدف الأساسي من الانتفاضة تحويلها إلى ورقة في مفاوضات برعاية الولايات المتحدة الأمريكية والسوق الأوروبية المشتركة!

وعلى أية حال، فحتى لو نحن شئنا لها أن تكون غير ما هي كائنة، فلن يتحقق لنا ذلك، ذلك أن الخيول الجامحة وحدها تعرف مداها ووجهتها ومرتعها.. ويدرك جموح الانتفاضة أنه مخول بحراسة صدقه وحماية غايته ورايته.

نستطيع نحن الاكتفاء بسياسية الانتفاضة وفلسطينيتها، أما هي، صاحبة الشأن، فلن نكتفي بذلك أبداً، إنها تطمح إلى تنفيذ الهرطقات القديمة الزاعمة بأن «فلسطين هي أرض بلا شعب من أجل شعب بلا أرض».. وتطمح إلى الرد على الفتوى الدينية القائلة أن «الفرق بين العربي واليهودي أكبر بكثير من الفرق بين العربي والبهيمة»..

وترفض الانتفاضة تمرير الطرح الاستفزازي الزائف الزاعم أن الصراع في بلادنا هو «صراع بين حق تاريخي يهودي ووجود عربي طارئ»..

ولا تقر الانتفاضة تطيرها في المساحة الإقليمية المحدودة، لأنها تتجاوز الرد على الواقع الإقليمي، إلى خلخلة الركود الفسيح الممتد من المحيط إلى الخليج. وهكذا، فإنها تتخطى في مهمتها الجوهرية العميقة مسألة تصحيح المعادلة الفلسطينية-الإسرائيلية، إلى السؤال الأكبر عن ماهية الواقع العربي وهوية الإنسان العربي ومصير علاقته بتاريخه وجغرافيته معاً، وإلا، فكيف نفسر قسمات الغضب والوجع القومي والهاجس الإنساني في وجوه الناس والطلبة الجامعيين العرب في جميع أرجاء الوطن العربي وهم يصرخون من وراء القضبان والجنائز ودروع الشرطة، بكل ما يكابده العربي من مذلة تقتله على مزاجها، ومهانة لا تليق بأجداده ولا تصلح لأحفاده؟..

وحين يقذف ولدٌ عربي حجرًا على دبابه، فأنا أرى الدبابه لكنني لا أرى ولداً ولا حجراً.. فهذا الولد هو أنت وأنا ونحن، إنه يحمل في صدره جذاً مشلولاً وأباً مغلولاً وأمةً ترعى لحمها ذئاب سايكس-بيكو. إنه يختصر -من حيث يحس ولا يدرى- حضارةً مركبةً وحلماً بسيطاً. ويده المشدودة ليست لمن يُنعم النظر ويمعن في التبصر، سوى اليد العربية الأولى التي شدت قبضتها في وجه الغزاة.. وإذا تسنت للغزاة قنبلة عنقودية، فإن حجر الفتى العربي يخترن قوة هذه القنبلة.. إنه الحجر العنقودي الذي يتقن خلخلة حساب المؤتمرات وزلزلة خطوط الخرائط.. ولا يقاطعني أحد باحتجائه الأكاديمي: «هذا كلام رومانسي»!.. واسمحوا لي أن أستعيد حواراً قديماً يوم قلت في لقاء ما بأشقائي في المنافي: سألقاكم

قريباً في الوطن، فردّ أدهم بمرارة: هذا خيال شعراء! ولم تسعفني سوى كلمات قليلة قدّمت نفسها بلا استئذان: ليس على الأرض ما هو أكثر واقعيّة من خيال الشعراء! ولم تمض سوى أيام، لا تتجاوز الشهور ولا تدرك العام، حتى التقيت ذلك الأخ في غرّة المحرّرة.. وكان عليّ أن أسند نظرتي من انحناءة الاعتذار!

بيننا ومنا وفينا من يروّجون لبهجة الشهادة ويرقصون في أعراس الدم والدمار.. وأنا لا ألوم هؤلاء الإخوة.. إنني أفهمهم.. أفهمهم جيداً، لكنني مضطر لتذكيرهم وللفت نظر العالم إلى أن مهمة قذف الحجارة وزجاجات المولوتوف ليست رياضتنا القومية! ونحن لم ننجب أبناءنا إلا للحياة، للعلم، للعمل، لغرس شجرة ووردة، لتشبيد مصنع ومدرسة، ولتكوين أسرة جديدة تسهم في بناء عالم جديد. ذات يوم، قالت رئيسة وزراء إسرائيل غولدا مئير: «لن نغفر للعرب كونهم يجبروننا على قتل أبنائهم».. وبهذا، فقد لحّصت غولدا مئير عنجهية القوي وغطرسة العنصريّ وسادية القاتل.. ويجيء الردّ الواضح والكاسح على لسان محمد الدرة الذي لم يعد قادراً على الكلام من أعماق التراب: كنت ذاهباً مع أبي لشراء سيارة متواضعة للعمل وللنزاهة الفقيرة، فما الذي حملكم على القدوم إلى بلادي وقطع طريقي، وما الذي أجبركم على قتلي سوى شهوة القتل التي تقتل فيكم الإنسان قبل أن تقتلكم خطيئة قتل الإنسان؟

وعلى سجية القنلة المحترفين، فإنهم يمتشقون ساديّتهم من جديد، ويوجهون تهمة القتل إلى أهل محمد الدرة.. ومرة أخرى، يضعون الضحية في موقع الجلاد، محاولين قلب التاريخ رأساً على عقب وتأليب الحقيقة على ذاتها. وللانقفاضة رأي في كل شيء، ولا يمتلك أحد الحق في سلبها حق التعبير عن ذاتها في كل ما شكّل إرهاباتها وانفجاراتها.

للانقفاضة أن ترفض التعصب الديني الأعمى والتحرّج المذهبي.. لها ألا تقرّ التحريض في خطبة جمعة على «النصارى الكفار»، بينما تتسابق الفضائيات العربية على بث أجمل الإبداعات البشرية للقدس على لسان ملاك القدس فيروز العربية النصرانية المؤمنة.. وللانقفاضة أن ترفض التهريج الإنشائي المزدوج والكاذب حين ينادي أحد المتزعمين العرب بتحرير فلسطين، بينما يتضح، بمشيئة ربانية كما يبدو، أنه حوّل بلاده إلى قاعدة أمريكية تنطلق منها المدمرات وحاملات الطائرات لتدمير الروح العربية في العراق وفي أرجاء أخرى من الوطن العربي تعتبرها أمريكا وبريطانيا ملغومة بالعنفوان العربي والرفض الإنساني. وللانقفاضة رأي واضح في الشعر والفن والثقافة، فهي لا تقبل مقايضة الزهور المفعمة بالحياة بزهور البلاستيك الباردة.

وبقدر ما تحتضن الانقفاضة مبدعها السافر والملثم بكوفية الكفاح، فإنها تستبعد عمليات التجميل

الجراحية والأقنعة المستوردة من مصانع الكرنفالات.  
وللانتفاضة رأيها القاطع والساطع في مسائل المجتمع، فهي لا تقرّ بحق المرأة في قذف الحجارة فقط،  
بل تصرّ على حقها في المساواة الناجزة على أصعدة الحياة كافة وبلا استثناء.

وحين تقول الانتفاضة وجعها الجسديّ وطموحها الروحيّ، فإنها تطلق إلى الكون ما في حشاشة أمة  
مقهورة ووطن ممرّق، عبر مفردات ثلاث تختصر القواميس وتلخص اللغات:

الحرية.. الوحدة.. الإبداع!